الاسم الكامل: أشواق خنوس

عنوان المداخلة: **المواطنة العالمية من تجاوز مركزية الذات الى تأسيس ثقافة العيش المشترك.**

الملخص:

شغل موضوع المواطنة العديد من الباحثين والدارسين النقاد، إذ كتبوا ومازالوا يكتبون حول هذا الموضوع إذ شكلت صلب الاهتمامات الفكرية للعديد من الفلاسفة، ويعود هذا الاهتمام إلى تلك الأزمات السياسية خاصة ماتعلق بالإطار القانوني والسياسي إذ لم يعد ذلك مختصرا على منطقة دون أخرى في العالم، إذ نجد العديد من الصراعات حول هذا المفهوم خاصة ماتعلق بالمدنية والدولة وعلاقتهما بأفراد المجتمع الواحد وإشكالية المواطن المثقف وعلاقته بالسلطة إذ لايمكن فهم أبعاد المواطنة ودلالاتها بمعزل عن مفهوم الحق والواجب والأنا والآخر وهذا مابينه روسو في تطرقته لمعنى المواطنة والتعايش مع الآخر المختلف الذي هو موضوع ورقة بحثنا هذه.

الكلمات المفتاحية:

المواطنة، الآخر، العيش المشترك، الاعتراف، المجتمع، الدولة ، المدنية، الحق، الوضع الطبيعي القانون الوضعي، السلطة، القانون.

Résumer:

Le théme de la cityenneté occuppe les ésprits judicieux, les philosophe et les criticien qui ne cessent pas de traiter ce sujet qui devient une préoccupation et à tout les spécialistes, cette importance est le politiques surtout ce qu′il a une relation avec le cadre juridique on rencontre plusieurs confilits sur sa cinception surtout ce qui a une relation avec civilisme et état et la relatio intimes entre les comme une tout et le probématique de l′individu citoyen intellectuel et sa relatio avec le pouvoir,parceque on ne jamais comprender les repéres de la citoyenneté loi de la concepptio de la devoir

et droit, le moi et l'autre selon Rousseau qui s'intéresse à ce théme de la citoyennté qui aura le thém de notre recherch.

نظّر الكثير من الفلاسفة لمعالجة العديد من القضايا المتعلقة بالبشرية من أجل تحسين الوضع والانتقال بهم من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية وهذا الانتقال حسب **توماس هوبز Hobbes 1588-1679 Thomas**راجع الى الصراع الحاصل بين الأفراد والجماعات الذين لهم قدرات متساوية، فحين يرغب فرد ما في تحقيق غاية ما وفي الوقت نفسه يوجد من يسعى إلي الأمر ذاته فلا يمكن أن يحققاها سويا بل يحققها واحد منهما وبالتالي عدم تحقيق الرغبة يولد صراع مما يجعل كل واحد منهما يسعى إلى القضاء على الأخر ويحقق أهدافه على حسابه، ما يعني أن الحصول على الرغبات وتحقيقها يستلزم محاربة الآخر واستعمال القوة لحماية مكتسباته، هذا في الحالة الطبيعية حسب هوبز وهي حالة يسود فيها الحرب والفوضى وعدم الاستقرار هذا قبل ظهور أو الانتقال إلى التمدن، بمعنى قبل ظهور المجتمعات الحديثة التي ساد فيها العنف، هذا الأمر لم يكن له ضوابط ما يعني غياب السلطة المنظمة ولا وجود للأمن والاستقرار فكل فرد يسعى إلى حماية نفسه بحسب قدراته وإمكانيات، لكن روسو آمن بحقوق الضعفاء ويقف وقفة معارض ضد كل إنسان يسخر ذاته ويجردها من حرياتها ويجعلها في خدمة الأخر ومصلحته باختلاف أصنافهم حيث تحدد إرادتهم في إرادة واحدة والحاكم الذي اختاروه، هذا يتوقف على مدى مشروعية المشروع السياسي، وفي هذا المقال نسعى إلى توضيح مفهوم المواطنة العالمية **Citoyenneté mondiale**حسب طرح روسو لها من خلال تربية إميل فمن هو المواطن في رأي روسو؟ وما معنى المواطنة؟ وكيف نحقق التعايش المشترك في ظل التنوع والتعدد الثقافي؟

01- روسو ومفهوم المواطنة:

إن إشكالية المواطنة**Citoyenneté** مطروحة منذ عدة عقود ضمن اهتمامات العديد من الفلاسفة والباحثين سواء كانوا من الغرب أو من العرب حيث أصبحت هما سياسيا محط العديد من الأقطاب الدولية على المستوى العالمي إذ حظيت باهتمام مختلف الفئات سواء تعلق الأمر بمجتمعات الحداثة **La Modernité** أومابعد الحداثة**Postmodernisme** هذا الاهتمام ناتج عن تلك الحوارات الفكرية المتعلقة بحقوق المواطنة والأزمات السياسية المرتبطة بالإطار القانوني والسياسي وحتى الاجتماعي للمواطنة، إذ تعد هذه الأخيرة الركيزة الأساسية التي تقوم عليها الديمقراطية* ومقوم أساسي من مقومات الحداثة السياسية والاجتماعية[1]، غير أن الحقوق والواجبات نحو المواطنة غير متفق عليها بشكل محدد ومطلق أي بشكل عالمي**Universelle** وفق قانون معين بل تختلف حسب الدول والايدولوجيا والنظام السياسي إضافة إلى تلك الإشكالات الثقافية والاجتماعية التي عالجتها المواطنة عبر مسارها التاريخي، فلو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أن مفهوم المواطنة يتغير من عصر إلى آخر ومن زمن لآخر حسب المعطيات والأحداث السائدة داخل الدولة يرجع إلى النظام السياسي المهيمن.

لدى الإغريق لم يكن هناك اعتراف بالإنسان ككائن له القدرة على تسيير وتنظيم الحياة وتسيير المجتمعات بمعنى أن يكون المصدر الرئيسي لكل ماهو سياسي اجتماعي، كما أن المساواة لديهم تقوم على العشوائية والطبقية فلا وجود للمساواة بين مواطن عادي عامي وبين أرباب العمل أو الأسر أو السكان الأصليين للمدينة ما يعني أنها قائمة على الطبقية والاختلاف بين أفراد المجتمع الواحد هذا يشير إلى الإقصاء والتهميش الذي كان يعاني منه الفرد اليوناني غير أنه في العصر الحديث لم يبقى الأمر على حاله حيث تم الدعوة إلى تطبيق المساواة بين الجميع وتكريس معنى الحرية فلم تعد المواطنة لها أسس دينية مستمدة منها كما هو الحال في العصور الوسطى أو الطبقية مثلما كان معمول به لدى الإغريق قديما إذ أصبحت سلطة الشعب هي المتحدث، هذه الأخيرة هي نتاج عقلي خالص وتحالف بين مواطنين أحرار لهم نفس الحقوق والواجبات، بمعنى أن هناك قدر عال من المساواة هذا ما جعل السوسيولوجي **دومينيك شنايبر Dominique Schneipper** الذي جعل المواطنة مبدأ الديمقراطية العالمية وضرورية في كل المجتمعات[2].

الديمقراطية منعدمة كلية من جميع الجوانب في ظل انعدام المواطنة مثلها مثل الأمة هي كيان غير قابل للتقسيم يجب تنظيمها وضمانها بواسطة دولة مركزية تعبر عن الإرادة العامة التي توحد المجتمع،[3] حيث يقر هوبز بوجود رجل الدولة القوي الذي يتولى زمام الأمور، لذا لابد التنازل له على كل الحقوق مما يحقق التعايش في كنف الأمن والسلام ما يتطلب وجود قانون طبيعي يتحقق على ضوئه السلام وبالتالي لابد من قيام دولة أو سلطة تسهر على تحقيق ذلك، إذ تتمثل هذه السلطة في شخص واحد يمثلهم جميعا وتتوفر فيه جميع مقومات القوة وهو ما

يسميه هوبز –**باللوثيان**– **التنين**– وهذا الأخير يقوم بحفظ كل فرد وحمايتهم والتجمع والاتحاد ما هي إلا ضرورة اقتضتها الطبيعة ليس كما هو لدى فلاسفة آخرون الذين نظروا إلى الإنسان على أنه حيوان سياسي بطبعه يقتضي وجود نظام سياسي رشيد.

يوضح هوبز أن التجمع الذي قام به الأفراد للانتقال من الحالة الطبيعية إلى الحال المدنية قائم بموجب عقد اجتماعي من أجل تحقيق الاستقرار والسعادة وتفادي ما يسميه هوبز حرب الكل ضد الكل التي تحكمها الغريزة لكن في ظل وجود سلطة حاكمة تضمن السير الحسن داخل الدولة وفي الوقت ذاته تطوعهم عن طريق الخوف من سن نواميس تنص على الردع والعقاب في حالة تجاوز ماهو منصوص عنه، غير أن **جون لوك 1632– John Lock1704** يذهب على عكس ما ذهب إليه هوبز في مسألة النظام الطبيعي لحياة الأفراد فالوضعية الأولى للأفراد وفي نظر لوك ليس حالة حرب وفوضى بقدر ما هي حالة من المساواة ففي هذه الحالة يكون الأفراد على نفس القدر من المساواة فالفيصل في هذا هو الرجوع إلى العقل لتجسيد معنى الحق الطبيعي، ولتحقيق هذا الأخير لابد من الحرص عليه ومعاقبته كل من ينتهكه وبالتالي ضرورة الاتفاق على احترام الوضع الطبيعي كما أن حقوق الامتلاك راجع إلى الحالة الطبيعية، كون حقوق الملكية ضرورة تقتضيها قوانين الحياة فلابد من تحقيق الاكتفاء الذاتي لضمان حياة متيسرة، فلو أمعنا النظر لوجدنا أن الإنسان في الحالة الطبيعية لم يمتلك أدنى إمكانيات الحياة حيثكان يعيش في فوضى عارمة.

نجد لوك يقر بالاختلاف الواضح بين الحـالة الطبيعية وحالة الحـرب اللتين خلط بينهما مع ذلك بعض الناس اختلاف بعيد للغاية مثلا الاختلاف بين حالة اللام والإرادة الخيرة والمساعدة المتبادلة، وبين العداوة والحقد والعنف والتحطيم المتبادل فهما بعيدتان عن بعضهما البعض الأخر[4]، فالحالة الطبيعية عند لوك تتمثل في مجتمعات يعيشون في سلام وأمان وفي بداية تعايشهم الأولى قبل الانتقال إلى فترة التمدن إذ أنه قبل الوصول إلى هذه المرحلة تمتع الأفراد بالحرية وعلى قدر واسع من المساواة في جو يعمه الخير والمحبة والود في ظل نظام حكم الطبيعة، لكن لابد من معرفة الوضع العام للحالة الطبيعية إذ يقرر لوك أن الحالة الطبيعية ليست مقترنة بالمرة بالحالة الأصلية التي كان عليها الإنسان في بداياته الأولى أي قبل ان يكون هناك انتقال إلى الوضع المدني الذي يسوده نظام حكم سياسي مل يعني أن الحالة الطبيعية تشير إلى تلك الشبكة من العلاقات التي كانت تربط المجتمع الواحد دون حالة وجود نظام سياسي أو يضبطها فقد تكون حاضرة في أي زمان أو مكان.

قد يكون هناك جماعة من الأفراد تحكمهم علاقات معينة لا يخضعون إلى سلطة معينة أو يحتكمون إليها فإنهم يعيشون في حالة الطبيعة على النقيض من المجتمع المدني الذي يعيشون أفراده في كنف سلطة الرئيس أو الحاكم يتولى شؤون الحكم بينهم هذا الأخير سيضمن لهم رفاهية العيش ويجعل أفراد المجتمع الواحد يتفقون على إعطاء الولاء للحاكم من أجل تكوين جماعة متحدة لكن هذا الاتحاد يقوم على شرط أن تخضع الأقليات لحكم الاكثيرية بما يتوافق مع العقل ومع القرار المتفق عليه من قبل الأكثرية وإلا فقد العقد معناه وقيمته، غير أنه من غير المنطقي أن يتخلى أفراد المجتمع على حرياتهم ويولون السلطة إلى الحاكم بشكل مطلق إذ أن لوك يستبعد كل شكل من أشكال الهيمنة والاستعباد.

أما روسو فإنه يعالج مسألة المدنية في علاقتها بالأخلاق هذا الأخير الذي يعد المحور الأساسي، حيث وضح روسو أن تراكم وتزايد الحاجيات التي لا نفع منها أمر زائد لا فائدة منه فإذا أمعنا هنا النظر في كتابات روسو نلمس اهتمامه بمفهوم اللامساواة بين البشر إذ ميز بين مظهرين أولهما يجب معرفة الذوات البشرية هذا ما جعله يميز بين إنسان الطبيعة وإنسان الإنسان، إذ ميز بين المساواة بين الطبيعة وما يدعوه اللامساواة السياسية، الأولى تكمن في الجانب الفيزيولوجي من ناحية القوى الحسية والسن وما إلى ذلك...أما الثانية فإنها تنحصر في الامتيازات والإمكانيات من مناصب ومراتب يمتلكها أفراد على حساب الآخر أما حديث روسو عن الحالة الطبيعة التي يعيشها الإنسان الطبيعي تتميز بالعشوائية والعبثية فلا تحكمه أي علاقات قيمية أوروابط مشتركة بغض النظر عن طبيعتها ما يشير إلى غياب الإنسانية أو الاجتماعية.

ما يجعل الإنسان اجتماعيا هو امتلاكه الحرية التامة بشرط أن يكون واعيا بذلك والعامل الثاني يتمثل في قابلية الإنسان للكمال فظهور مفهوم التملك –حق الملكية– يعد تعبيرا عن الوضع الاجتماعي إضافة إلى ظهور الثورة الصناعية والزراعية، ساهم في تزايد الأملاك وتقسيمها ما يظهر فوارق بين الفقراء والأغنياء ما يعني اللامساواة ساهمت بشكل أو بآخر في صناعة الفوضى وتعارض المصالح هذا ما سماه هوبز حرب الجميع على الجميع لكن هذه الحالة دفعت الحكومة إلى سن قوانين وتشكيل لجان حاكمة، غير أن هذا في نظر روسو ليس إلا نوعا آخر من اللامساواة ما زاد الأمر تفاقما في ظل زيادة اللامساواة المدنية أو السياسية هذا الأمر يدفع بأصحاب الأملاك يلجئون إلى المطالبة بحماية القانون– هذا الأخير– الذي تشكل نتيجة تحالف كل القوى لتشكيل سلطة تحكم على أساس القانون لكن هذا الأمر قد برمج مبدأ القوة خاصة في حالة ما إذا طالب القوى– الغني– بحماية السلطة على حساب الضعيف–الفقير– وقمعه وإقصائه وحرمانه من كل مستحقاته هذا يعد تعسفا في حقه وتكريس لمبدأ اللامساواة وإن دل على شيء فإنه يدل

على أن الصورة الزائفة التي اتخذها العقد نظرا لما يحتويه من قمع للحريات والحقوق، يعد هذا قمع للإنسان وللإنسانية جمعاء.

فإن عدنا إلى مكانة المواطنة في فلسفة جان جاك روسو1712-1778**Jean Jacques Rousseau** نجدها تحتل مكانة أساسية بل المواطن في حد ذاته يعد الركيزة الأساسية لقيم المجتمع حسب روسو فمبادئ المواطنة مترسخة في كتابات روسو، إذ ارتبطت أيما ارتباط بمعنى الأخوة والصداقة فأن تكون مواطنا حسب روسو أن تربطك بالآخر علاقة إنسانية متبادلة لتحقيق معنى السعادة في الفضاء الاجتماعي يقول روسو:< **لقد كنت أحب الناس على الرغم منهم، فلم يستطيعوا التملص من حبي لهم إلا بتجردهم من الانسانية** >[5]، بهذا الشكل تتجسد المواطنة في معناهاإذ عاش تجربة المواطنة في جو يملأه التعاطف والمحبة بين الجميع فمثل هذه السلوكات تتأصل داخل المجتمع الواحد متكافل متضامن مع بعضه البعض ما يشكل مجتمع تربطه علاقات حميمية سواء كانت هذه الأخيرة متعلقة بالوطن أو الصداقة أو غيرها فلا يتحقق هذا ويستمر في شكل إتحاد فهذا يشير إلى أن المواطنة لا تنفصل عن الأخوة والصداقة كون المواطن هو الأخ والصديق...

ما يعاب على روسو أنه حصر المواطنة في تلك العلاقات الاجتماعية متجاوزا ذلك المفهوم الذي جعل منها تخوّل الإنسان أن يكون صاحب حقوق نابعة من مجموعة من النواميس النابعة من إتحاد أفراد المجتمع الواحد، لكن روسو جعل من هذا الاتحاد حصيلة انتشار روح المواطنة وليست هذه الأخيرة نابعة من الاتحاد، وفي ظل كل هذا تندثر معاني الأنانية والبغض ويطغى الحب والتعاون والتسامح ما يكون الركيزة الأساسية التي تقوم عليها المواطنة في معناها السياسي.

02- المواطنة والعيش المشترك:

يتضح أن روسو في تصوره للطبيعة الإنسانية أنها طبيعة خيرة فالإنسان يعيش في سعادة وحب وعطاء مشترك متبادل بينه وبين الآخرين، لذا ينعم بالسعادة المشتركة التي تكون مصدرا للمواطنة الناتجة عن تحالف أفراد المجتمع الواحد إذ ترتبط بين أفراد هذا المجتمع علاقة أقل ما يقال عنها أنها علاقة أخلاقية مشتركة بين أفراد المجتمع لتنقل هذه الحالة من الوضع الطبيعي إلى الوضع الاجتماعي، بمعنى من الأنا إلى الجماعة وبالتالي مقاسمة هذا الحب مع من تعيش معهم من مواطنين ومن المقربين لنا فمجرد مساعدة أي كان من حولنا في أي جانب نكون قد حافظنا على الوحدة الوطنية، فما الغاية منها إلا الخير المشترك فإذا ما تم ذلك نحتت علاقات المواطنين ببعضهم البعض وعلاقة كل مواطن بالدولة تكون على أساس التبعية وهذه التبعية تقوم

على أساس ارتباط وتبعية لجهة قانونية معينة كهيئة تشريعية، إذ تضمن هذه الأخيرة حرية المواطن بفضل قوة القانون.[6]

يرفض روسو التعصب للوطنية والمفارقة بين المواطنين الأصليين والأجانب فلابد من الاحتكاك بهم والتعامل معهم في إطار تبادل العلاقات مع الآخر فهو مرآة الأنا إذ يسمح لنا برؤية أنفسنا بشكل أفضل وجيد، فروح الوطنية تكمن في نظرتنا إلى الأجنبي على هذا الأساس يظهر معنى الحب للمقرب وهو وحب طبيعي من خلاله تتجلى المواطنة لدى روسو، الوطن هو حب متشارك بين المواطنين وحب للقوانين واحترامها والعمل بها وفقا لما يتوافق مع حقوق الإنسان وليس معاداة الإنسان لأخيه الإنسان فالمواطنة تتجسد في معنى أن نكون إنسانيين مايعني أنها تحمل أبعادا لحقوق الإنسان على وعي ولابد من الدعوة للتعايش مع الآخر كما لو أنه مواطن لنا وهذا يعتمد على بناء دولة تراعي حقوق المواطن.

03- المواطنة من المفهوم إلى الممارسة:

يتحدث روسو عن خطاب اللامساواة التي تبرز المعنى السيئ للمواطن حيث يظهر استغلال الإنسان للإنسان وينتهك حقوقه من أجل مصلحته الخاصة، خاصة ما تعلق منها بالجانب المادي إذ يبحث كل فرد عن سبيل لتحقيق مصالحه فقد يؤدي به الأمر إلى توظيف الآخر كوسيلة لتحقيق مآربه وأهدافه، وبالتالي يحقق رغباته على حساب الآخرين لكن في نظر روسو هذا لا يعبر عن الوعي القصدي للجماعة بل ما يسعى إليه هو المصلحة العامة للجماعة ككل وتحقيق التفاعل الاجتماعي، لذلك يقر روسو بالعقد الاجتماعي للفرد من أجل حماية ذاته وثرواته وحياته أيضا هذا هو معنى التعاقد موضحا روسو أنه لا وجود لهذا العقد إلا في ظل وجود إتحاد وتوافق جماعي الذي يجسد الجسد السياسي للإرادة العامة فالشعب هو صاحب السيادة وفقط بل هو مصدرها[7].

شكل روسو المعنى الحقيقي لمجتمع قوامه الديمقراطية التي تكون في يد الشعب فكل شيء يحكمه وبشكل مطلق فلا وجود لقانون غير القانون الذي يصنعه الشعب هذا الأخير الذي يسن القوانين التي تكون دائما في خدمة المصلحة العامة التي تعبر عن مصلحة الفرد والجماعة على حد سواء بعيدة عن كل ذاتية، ما يعبر عن البعد المشترك بين أراد المجتمع الواحد. فالمواطن هو ذلك الفرد الذي يساهم بشكل أو بآخر في بناء وتفعيل الفعل السياسي وبتعبير **حنه ارندت1906-1975 Hannah Arendt** فمجمل القوانين التي ترفضها الجماعة تكون لها صدى واسع كونه يمثل الوجه الحقيقي للمواطنة وبالـتالي مجـمل القوانين الصادرة عن

الشعب يجب الامتثال لها وأية معارضة على ذلك لها عواقب وخيمة تعود على الفرد وعلى مصلحته الخاصة فالقانون يطبق على الجميع دون اعتراض، المواطنة تقوم على أمرين أساسين هما المشاركة السياسية والمساواة أمام القانون ما يحقق قيم المواطنة التي تسعى إلى الاختلاف والتنوع ومشاركة الآخر دون إقصائه.

رغم ما قدمه روسو من تصورات لمعنى المواطنة أعطى للآخر وللجماعة الولاء على حساب الفرد مما جعل حقوق الفرد وواجباته تكون ضمن الجماعة لأن هذه الأخيرة تكون شعبا متآلفا وموحدا لكن هذا لا يعني أن الفرد يفقد حقوقه بشكل نهائي بل حقوقه تقررها الجماعة المدنية التي تتكفل بذلك لأنها تأسست لحمايته[8] فما يود توضيحه روسو ليس اختزال الفرد داخل الجماعة بقدر ما يرغب في ترسيخ العيش المشترك داخل الجماعة عن طريق خلق علاقة مباشرة متبادلة بين الأطراف إذ من الضروري أن يعرف كل مواطن مع من يتعايش إضافة إلى كل هذا فإنه من واجب كل مواطن أن يكون ملما بالنسبة الثقافية واجتماعية والاقتصادية والتاريخية لبلده.

فالعقد الذي يقر به المواطنين يضعهم جميعا على القدر نفسه من المساواة ويتمتعون بالحقوق نفسها ما كرّس حقوق الإنسانية وحقوق المواطنة، وهذا يعني الانتقال بالإنسان من طور العيش إلى مبادئ وأسس المواطنة التي تكون في يد الشعب وهذا الأخير يساهم في بناء وطنه وتسيير شؤونه وفقا ما يتلائم ويخدم المصلحة العامة والإنسانية فالمواطنة هي ركيزة أساسية لحقوق الإنسان، على الرغم ما قدمه روسو من قيم ترسخ لقيم المواطنة إلا أنه لم يعر المرأة أية اهتمام وكأنها مقصية من تفعيل العمل السياسي والاجتماعي، على الرغم أنه يقر أن القانون وضع لحماية حريات الفرد لا إلى انتهاكها واختزالها هذا إذا كان الغرض منه هو تحقيق ترسانة من الحقوق ورفع شعار الحرية والمساواة فالحرية والمساواة في انعدام العدالة والقانون يعد ظلما وتناقضا لا يقبله العقل هذا ما أدلى به **جون رولز John Rawls1921-2002** في كتابه **العدالة كإنصاف** مبينا أن التصور لا يمثل العدالة السياسية يكمن في تحقيق قيم الحرية والمساواة بين كل المواطنين[9] فحتى يكون أفراد المجتمع الواحد يحملون قيم المواطنة لابد من المساواة بينهم فلا وجود للفقير والغني بالغنى يجلب عدم المساواة صحيح أن المال يجعل منهم على قدر من الرفاهية والسكينة إلا أن عدم وجوده يجعلهم متساوون فلابد من ترسيخ حب الوطن واحترام قوانينه والمساهمة في إصلاح قيم التعاون والتضامن من أجل تحقيق ثقافة المشترك وحماية حقوق الفرد فكل فرد فاعل ومتفاعل مع الآخر يساهم في إصلاح وبناء الوطن بعد المواطن.

03-التربية والمواطنة:

تشكل المواطنة مصدرا لمختلف الروابط والعلاقات التي تجعل من المجتمع الواحد متماسكا إذا يقتضي هذا توفر العديد من القيم التي توطد العلاقات الإنسانية والاجتماعية، هذه الأخيرة تهيكل معنى المواطنة والهوية الوطنية وتشكل التوافق الاجتماعي من أجل العيش المشترك في كنف حياة اجتماعية مشتركة لكن هذا لا يتحقق إلا في ظل وجود وممارسة المواطنة والديمقراطية بحيث يكون المواطنين متساوين في ما يتعلق بالحقوق وأن يكون لهم حق المشاركة في تشكيل لجان سياسية، لكن ما سعى إليه روسو هو صناعة إنسان عالمي –كوني– رشيد حيث حرص من جعل إميل أن يكون إنسانا وليس مواطنا فقط هذا ما يظهر في كتابه **إميل** إذ يريد روسو أن يكون إميل حبه شاملا جميع الناس حتى أعداء الإنسانية ولا ينتهي إلى طائفة دون أخرى وأن يحترم جميع الناس[10].

فما تهدف إليه تربية إميل حسب روسو هو صناعة إنسان مثالي متعايش مع بني جنسه فالطبيعة لا تعترف بالفردانية والانعزال بل يندمج في الفضاء العمومي – الوسط الاجتماعي– حتى يكون إنسانا ومواطنا في الوقت ذاته وهذا يتطلب الحرية والسكينة التي تعتبر كخير أسمى لكن تبقى القيم الأخلاقية آداب المجتمع هي الأجدر والاهم اتجاه بلده، لكن ما ينبغي في ظل وجود القوانين الوضعية هو ترسيخ نوع من الوعي اتجاهها، فالمواطنة مرتبطة بمحبة المواطنين لكن في حالة ما كان القانون يتعارض مع مصلحة المواطن فإنه ينتج عنه صراع اجتماعي خاصة ما تعلق بتقاطع المصالح هذا ما يتعارض مع المواطنة لهذا لابد من ترسيخ التربية الوطنية (المواطنة) ولابد من تثبيت روح المواطنة لدى الناشئة، غير أن إميل حتى يحقق مشروع إنسان مواطن عالمي يستلزم على مربيه أن يغرسوا فيه روح المواطنة منذ صغره حتى وإن تحقق ذلك في ظل وجود مجتمع تتوفر فيه جميع الشروط والإمكانيات لكن إميل هنا ينبغي عليه أن يتنازل عن كونه مواطن شمولي لأن أسس التربية الكونية تتعارض مع التربية داخل مجتمع مصغر لذا يتبين أن إميل لا يصلح أن يكون النموذج العالمي لمعنى المواطن في مجتمع مثالي لا نموذجا لمجتمع غير سوي.

المواطنة ليست مجرد مجموعة من الحقوق والواجبات اتجاه الآخر ففكرة المواطنة في جوهرها تعد حصيلة لثورات متعددة سواء كانت سياسية وعلمية ودينية فمنذ عصر النهضة الأوربي يعد هذا عنصرا فعالا في تشكيل الهوية السياسية والاجتماعية للفرد الأوربي فهناك تداخل وتكامل بين الاعتبارات السياسية والقانونية والدينية والاجتماعية للمواطنة[11]، هذا لا يعد ويكتمل إلا في ظل وجود حس المدنية المواطنة ولا يتحقق ذلك إلا في غضون تجسيد هذه الأخيرة تقوم على تسخير أنفسنا لخدمة الوطن في جميع المستويات وترسيخ الوعي اتجاه الأفراد

ومختلف سلوكا تهم بمعنى تكريس كل القوى في بناء الوطن وحمايته بل تسخير المصلحة الفردية من أجل المصلحة العامة، وهذا في حد ذاته يعد أهم بعد للمواطنة التي تتحقق بوجود المدنية التي تتطلب تبادل الثقافات والاحترام بين الأفراد المجتمع الواحد وبين المواطنين بصفة عامة واتجاه الفضاء العمومي- المنشآت المادية- والاعتراف بالأخر فهو المرآة التي أرى فيها أنايا وتعكسه وتبادل التسامح ونشر الإصلاح فالأمر يتعلق بأخلاقيات العيش المشترك عبر السير الحسن للمواطن داخل الفضاء العمومي، هذا الأخير الذي يعد فضاء للمساواة بين أفراده في الحقوق والواجبات بمعنى أن هذه المساواة تجمع بين جماعة من المواطنين في ظل احترام متبادل بين بعضهم البعض وهذا يحيل إلى المشاركة في بناء قيم الديمقراطية[12]

إضافة إلى المدنية وحسن المواطنة لابد من وجود قيمة أخرى هي التضامن الذي يعد عامل مهم لتعزيز ثقافة المواطنة كون الأفراد لا يعيشون بشكل عشوائي بل تربطهم الرغبة في بناء مشروع قيمي مبني على أسس التعاون ما يزيد من انفتاح الأفراد على بعضهم البعض وتشديد العلاقات من أجل تحقيق رغبتهم في العيش المشترك دون شك لذا لابد من توفر نوع من الدعم من قبل السياسة لتعزيز فاعلية التضامن، فالسياسة دور فعال في دعم ذلك وتحديد فعالياته هذا في حد ذاته يشكل جزءا من الثقافة الاجتماعية وهوية الفرد أولا والمجتمع ثانيا وهذه الأخيرة تختلف من مجتمع لآخر باختلاف العقل الاجتماعي المنتج لها.

مما تقدم يتبن أن روسو لم يكن على شاكلة السابقين عليه في طرحه للوضعية الطبيعية ومجمل الحقوق الطبيعية وكيفية الانتقال من حالة إلى حالة مغايرة أي من المدنية إلى العقد الاجتماعي..كما نجده أعطى قيمة لمفهوم المواطنة والوطن دون أن يستغرق في الفضاء العمومي، كما أنه من الناحية السياسية أعاد النظر في العديد من المسائل من المساواة والحرية والحق إذ لابد من أن تكون الإرادة العامة إرادة مطلقة بحث يفكر الفرد أنها إرادته لكن في الوقت ذاته يكون هنالك احترام لإرادة الآخر هذا ما يؤسس معنى الديمقراطية بمعنى النزوع من الفردنة وتشكيل الجماعة.

من خلال الطرح المقدم نجد روسو جعل من الروابط الاجتماعية تتخذ نظاما أخلاقيا في إطار يحكمه نظام وضعي بفعل الحق والقوة وبالتالي يعني هذا وجود قدر ممكن من التجمعات المدنية التي يستطيع الإنسان من خلاله أن يخلق نوع من الانفتاح الثقافي والأخلاقي كون هذا يعد تعبيرا عن وجود هيئة سياسية التي تعد المجسد الوحيد لمعنى الأخلاق، لقد كان جاك يعتبر أن العيش المشترك يتحقق من خلاله السعادة التي كان ينشدها وهذا يعد انعكاسا لما عاشه جاك من صعوبات في حياته – وحدة وعزلة- لذا مجد الإنسان لأنه الوحيد القادر على بناء مجتمعات تحمل قيم الإنسانية في شكلها الأكثر صدقا ونقاء، لذا يقر الفيلسوف الألماني

كانط أن جاك هو الوحيد الذي رسم له الطريق بفهم معنى الإنسان والإنسانية على حد سواء دون مفاضلة لذا الفلسفة الكانطية تسعى إلى تحديد وتجسيد معنى فلسفة الحق الكونية.

الهوامش:

*الديمقراطية: نظام سياسي تعود فيه السيادة لجميع المواطنين لا لفرد واحد أو طبقة واحدة منهم: ينظر جميل صليبا المعجم الفلسفي، ج01، دار الكتاب،1982، اللبناني، بيروت،ص574.

[1]- سيدي محمد ديب: الدولة وإشكالية المواطنة قراءة في مفهوم المواطنة العربية،ط01،2011 دار كنوز المعرفة،الاردن، ص10.

[2]- نفسه: ص12.

[3]- دومينيك شنابر كريستسان باشوليه: ما المواطنة، ترجمة سونيا محمود نجا، ط01، 2012، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص 48.

[4]- ليفي ستروس جوزيف كروبسى: تاريخ الفلسفة السياسية من جون لوك الى هيدجر، ترجمة محمود سيد أحمد، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام،ج02، المشروع القومي للترجمة، ط01،2005، القاهرة، ص10.

[5]- جان جاك روسو:هواجس المتنزه المنفرد بنفسه، ترجمة بولس غانم، مراجعة المنظمة العربية للترجمة، ط01، 2015، ص19.

[6]- جان جاك روسو: في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، ترجمة وتقديم عبد العزيز لبيب ص24.

[7]- نفسه، ص43.

[8]- أنسام عمر السوداني: فلسفة حقوق الإنسان هوبز لوك مونتسكيو روسو، ط02، الرافدين للنشر والتوزيع، بيروت،2017، ص142.143.

[9]- نفسه: ص142-143

[10]- جان جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ترجمة نظمي لوقا، تقديم زكي أحمد محمد، الشركة العربية للنشر والتوزيع،د.ط، ص09.

[11]- سيدي محمد ديب: الدولة وإشكالية المواطنة قراءة في مفهوم المواطنة العربية، ص60.

[12]- نفسه: ص70.